المحاضرة الأولى: مدخل إلى الدراسات الكمية والكيفية

تندرج البحوث العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلوم الإعلام والاتصال ضمن اتجاهين أساسيين هما الاتجاه الكمي أو الاتجاه الكيفي ويعتبر هذا التمييز من أهم التصنيفات بالنظر إلى الاختلافات الجوهرية التي تميز كلا الاتجاهين من الناحية الفلسفية ومن ناحية المنهج ومن ناحية الأدوات وطبيعة البيانات، ومنه فإن الاختلافات الجوهرية بين الدراسات الكمية والكيفية تتمثل في:

- **الأسس الفلسفية للتمييز المنهجي:** يعكس التنوع في البحث تنوعا في المعايير التي توجهه وبشكل أدق فإن التنوع الأنطولوجي(الكياني) والإبستمولوجي(المعرفي) الذي ترتكز عليهما منهجية البحث هو الذي يوجه البحث بمعنى آخر تتطلب منهجيات البحث تصاميم بحثية مختلفة لأنها في بنيتها النظرية تتبع فروضا أنطولوجية وإبستمولوجية مختلفة تؤثر في المنهجية التي توجه اختيار تصاميم البحث وأدواته وهو ما يقع ضمن الميدان المعرفي المسمى فلسفة العلوم. وفي ضوء هذه الإرشادات تعمل المنهجيات على تهيئة تصاميم البحث التي سيستخدمها الباحثون وتبين لهم مجالات تركيز بحوثهم. تتمثل فروض البحث الاجتماعي الأنطولوجية والابستيمولوجية والمنهجية على شكل أطر مفهومية أو نماذج إرشادية (مدخل نظري) توجه مسيرة البحث وتؤثر فيها، فعلى سبيل المثال يوجه الإطار المفهومي الوضعي الذي يشتمل على أنطولوجيا واقعية موضوعية وعلى ابستيمولوجيا تجريبية استراتجية المنهجية الكمية ويفرض لذلك تصاميم ثابتة وطرائق كمية كذلك فإن إطاري التفاعلية الرمزية والظاهراتية اللذين يشتملان على أنطولوجيا بنائية وعلى ابستيمولوجيا تفسيرية يوجهان استراتجية المنهجية النوعية ويفرضان تصاميم مرنة وطرائق نوعية ومنه فإن منهجية البحث هي استراتجية تحول المبادئ الأنطولوجية والابستيمولوجية إلى إرشادات توضح كيفية إجراء البحث، وهكذا يمكن القول أن الإطار أو النموذج هو مجموعة من المقترحات أو الفرضيات التي توضح الكيفية التي ندرك بها العالم وهو يشتمل على رؤية للعالم وطريقة لتحليل التعقيد في العالم الواقعي وهو يرشد الباحث إلى ما هو مهم وما هو مشروع وما هو معقول.
- **طبيعة الواقع والسلوك:** تفترض الدراسات الكمية وجود حقائق اجتماعية موضوعية معزولة عن مشاعر ومعتقدات الأفراد ويتم قياسها بأدوات مناسبة تتوفر فيها الخصائص الأساسية من صدق وثبات إلا أن البحث النوعي يفترض وجود مؤثرات عدة يتم بناؤها اجتماعيا من خلال وجهات نظر الأفراد والجماعات للموقف فهناك عدة دوافع تؤثر في المواقف لذا يحاول الباحث في البحث النوعي فهم الظاهرة في ظروفها التي تمت وحدثت فيها، ويستخدم البحث النوعي في المجالات التي يتبين للباحث أن الأساليب والمقاييس الكمية لا تستطيع وصف أو تفسير المشكلة أو الحالة المعروضة فالبحث النوعي ينظر إلى سلوك الإنسان على أنه من التعقيد بحيث يصعب فهمه بتلك الطريقة، كما أن السلوك الإنساني مرتبط بالبيئة التي تجري بها نشاطات ومعالم البحث ويعيش فيها المبحوثين وهناك تأثيرات اجتماعية وثقافية وتاريخية على الخبرات الإنسانية بينما تدعو البحوث الكمية إلى عزل السلوك الإنساني عن المحيط الذي يتواجد فيه الأفراد المعنيين بالبحث.
- **السياق العام للظواهر المدروسة:** إن البحث الكمي يدرس الظواهر الاجتماعية لا البنى الاجتماعية أي الأجزاء لا الكليات والسبب في ذلك أنه يقوم بعزل هذه الظواهر عن سياقاتها الاجتماعية ويخضعها للملاحظة والتجربة كحال الظواهر الطبيعية بمعنى أن الباحث يقوم بتحديد متغيرات وعزل أخرى عن الظاهرة المدروسة وبعد ذلك يبدأ في التحقق منها أما البحث الكيفي فينطلق من دراسة البنى الاجتماعية والمجتمع ويؤكد أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن عزلها عن السياق الاجتماعي فالكلية هي التي ينبغي أن

تحدد مسيرة البحث وهي جملة العوامل والعمليات في المجتمع والمحددة للظواهر وبذلك ينطلق البحث من أولوية الكل على الجزء.

- **الهدف من البحث:** تهدف البحوث الكمية إلى اختبار بعض الفرضيات التي تتعلق بوصف واقع معين من خلال بناء علاقات وقياس بعض المتغيرات واستخدام البيانات المتوافرة لإيجاد علاقة ارتباطية أو سببية والتوصل إلى عموميات غير مرتبطة بالسياق الذي تنفذ فيه الدراسة كما ويهدف إلى تعميم نتائج البحث على حالات أخرى، أما البحث النوعي فهو أكثر اهتماما بفهم الظاهرة من منظور المشاركين أنفسهم ومن خلال معايشة الباحث لحياتهم العادية حيث يعتقد الباحثون النوعيون أن الأفعال الإنسانية ومعتقداتهم تتأثر بالمواقف والبيئة التي تحدث فيها لذلك لا يهدف الباحث النوعي إلى تعميم النتائج بل توسيع نتائج الحالة التي كثيرا ما تقود إلى مواقف وحالات قد تكون متشابهة.

- **الموضوعية بين الدراسات الكمية والكيفية**: تعد الموضوعية أحد مبادئ البحث التي تتطلب إخراج أو استبعاد قيم الباحث ولآرائه الشخصية من سيرورة البحث بهدف تقليل الميل والتحيز الشخصي، ولا تزال مسألة ضرورة أن يلتزم البحث بالموضوعية غير محسومة في الأوساط الأكاديمية إذ انقسمت الآراء إلى اتجاهين فكريين متناقضين الاتجاه حيادي القيمة وهو موقف الباحثين الكميين والاتجاه المعياري موقف الباحثين النوعيين، ومنه فإن البحث الكمي يقبل مبدأ الموضوعية ويدعمه ويعتبره من أهم مبادئ البحث الاجتماعي، ويعتمد منطق الموضوعية على الاعتقاد أن دور البحث هو إدراك الواقع وتقديمه كما هو لا كما يفسره الباحث أو يتصوره. أما بالنسبة للبحث النوعي فيرفض أتباعه فكرة الموضوعية ويتمثل المنطق وراء هذا الرأي في عدم وجود واقع موضوعي إضافة إلى ذلك فإن الحيادية لا يمكن تحقيقها وهي غير ضرورية ولا يمكن اعتبار التقويم الداخلي والمشاعر والمعايير غير مهمة أو غير مؤثرة ، ولا يعني هذا الموقف أن الباحثين النوعيين يتخلون عن المتطلب الأكاديمي الخاص بالمسؤولية والصدق والشفافية في أعمالهم لذلك فالشفافية هي بديل للموضوعية إذا اتفق الباحثون في شأن عملية البحث وقبلوا النتائج وأثنوا على الباحثين بسبب إنجازاتهم، ويعني هذا أن شكلا من أشكال الموضوعية مقبول ويمارس من خلال احتواء كل دراسة نوعية دقيقة على قيمة الحقيقة وقابلية التطبيق والحياد الذي يعني القابلية للتحقق وهو عامل أساسي في البحث النوعي.

- **تصميم وسيرورة البحث**: ينظر الباحثون إلى تصميم البحث في سياق أوسع حيث يشمل جميع جوانب البحث ابتداء من اختيار الموضوع إلى نشر النتائج، لذلك تعتمد طريقة إجراء البحث على المنهجية التي يقوم عليها البحث فالباحثون الكميون والنوعيون يجرون بحوثهم ودراساتهم بطرق مختلفة، لذلك يستخدم الباحثون في تصميم البحث الكمي تصميما جيد البناء ويتضمن بالتفصيل جميع خطوات البحث، وينظر إلى البحث كعملية تتقدم في خطى متتالية ومترابطة ويعتمد نجاح خطوة ما على الإكمال الناجح للخطوة التي سبقتها وهذا الخيار يفرض قيودا أكثر لأنه لا يسمح بالمرونة والحرية في سيرورة البحث(أحادية الاتجاه). أما بالنسبة للبحث النوعي فغياب التصميم هو تصميم بذاته والباحث يحدد سبيلا على نحو ما وفي شكل ما ويلتزم به فما من باحث إلا ويعرف ما الذي يريد دراسته وما هي الأوضاع التي سيتحراها وكيف ومتى ومن الفاعلون وما أنواع الحوادث التي تتطلب تسجيلا وما الأدوات المستخدمة لذلك فالتصاميم النوعية المرنة تبنى قبل بداية البحث لكنها تعرض بشكل عام غير محدد ما يسمح بتفسيرات مختلفة ويتيح المجال لمزيد من القرارات ويسمح بحرية غير محدودة في التنقل بين الخطوات في عملية جمع البيانات وتحليلها في الاتجاهين.

- **دور الباحث:** تتميز البحوث الكمية باستقلالية الباحث عن موضوع البحث بخلاف ذلك فإن البحث الكيفي يعود إلى الإدراك الذاتي للباحث بوصفه عنصرا أساسيا من المعرفة ويكون دورا اجتماعيا متفاعلا يعتمد

على الذاتية المنضبطة ويؤكد الباحثون الكيفيون على أهمية البيانات التي يتم جمعها من قبل شخص ماهر من خلال الدور التفاعلي والاجتماعي الذي يشارك فيه وأن الفهم العميق للظاهرة إلي يدرسها يتم عن طريق مشاركته الفعالة في الأنشطة الاجتماعية التي يقوم بها المشاركون الحقيقيون وبذلك يكون وثيق الصلة بالبيانات التي يحصل عليها حيث يستطيع أن يطور العناصر التحليلية والتصورية للتفسير من البيانات الواقعية ذاتها وهو ما ينطوي على تحليل عميق يتسم بالشمول وبالقدرة على الوصف الدقيق والتشخيص الصحيح، بينما يكون دور الباحث الكمي منفصلا عن الظاهرة التي يراقبها من بعيد لكي يبتعد عن التحيز وعدم انغماس ذواتهم في إجراءات البحث .

- **العينة والمعاينة:** عينات البحث الكمي تكون عشوائية أو احتمالية في الغالب لتمثل مجتمع الدراسة بعدد مناسب وكبير نوعا ما أما عينات البحث النوعي تكون مقصودة عددها محدود ولكنها تضمن غزارة وافية من البيانات والمعلومات ويكون المشاركون في الدراسات النوعية عادة أفراد تتوفر فيهم خصائص الحالة المدروسة ويتم اختيارهم بصورة هادفة من موقع ما .